العبقريّة الحجاجية في اللّغة العربيّة من خلال دراسة تداولية لسانية لسورة الإخلاص

د.عز الدين الناجح

جامعة منوبة ـ تونس

شهدت الدراسات الحجاجية منذ 1958 تطوّرًا كبيرًا وذلك منذ صدور" مصنّف في الحجاج والبلاغة الجديدة"[1] لبيرلمان وتيتيكاه ولئن كان لهذا التأليف فضل إخراج الحجاج من أسر المقاربة الأرسطية التي جعلته رهين محبسين هما المقاربة الخطابية من جهة والمقاربة المنطقية من جهة ثانية، فإنّنا لا نعدم من دراسات أخرى قد تناولت الحجاج تناولاً خاصّا كان كتاب " بيرلمان وتيتيكاه" منطلقًا لها. ونعني بذلك مصنّفين مهمّين هما "استعمالات الحجاج"[2] لتولين والذي نقله إلى الفرنسية "باربنتار".

---

1 - Perelman (Ch) et Tyteca (L,O): Traité de l'argumentation et la nouvelle rhétorique. (éd) .Bruxelle, 1992.

2 - Les usages de l'argumentation: Toulmin (S) : Traduit de l'anglais par philippe de barbanter, P.U.F., 1993

والمنصنّف الثاني هو "الحجاج في اللّغة" [3] لديكرو وانسكومبر. ولئن كان مصنّف "استعمالات الحجاج" يمكّننا من وضعه ضمن خانة المقاربة المنطقية للحجاج فإنّ مصنّف الحجاج في اللّغة يندرج ضمن التناول اللساني للحجاج. وعليه يمكن القول بصيغة تأليفيّة تجريديّة جدًّا إنّ الحجاج منذ كتاب بيرلمان وتيتيكاه قد تعرّض إلى ثلاث مقاربات هي بمثابة الرجّة في الدّرس الحجاجي. فالمقاربة البلاغيّة يمثّلها بيرلمان وتيتيكاه بكتابهما المذكور آنفًا والمقاربة المنطقيّة يمثّلها كتاب تولمين وبما احتواه من مناويل [4] وفقها تكون العمليّة الحجاجية سالمة من اللحن. والمقاربة الثالثة هي المقاربة اللسانية، وعليها محور مقالنا، ويمثّلها ديكرو في كتابه الحجاج في اللّغة. والذي يشفع لهذه القراءة التأليفيّة السريعة هو تعريف الحجاج حسب كلّ تناول. فلئن عرّف بيرلمان وتيتيكاه الحجاج من منطلقات خاصّة وهي منطلقات نصوص المرافعات في المحكمة إذ يقولان "والغاية من كلّ حجاج هو جعل العقول تذعن وتسلّم بما يطرح عليها من الأقوال أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم فأنجع الحجاج وأنجحه ما وفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب" [5] والمحصّل من تعريف بيرلمان وتيتيكاه هو التعريف

3 - Ducrot (O) et Anscombre (J.C): L'argumentation dans la langue, (éd) Mardaga, 1997.

4- لمزيد التعمّق في مناويل تولمين الثلاثة انظر الصفحات 122-125-128 حيث تذكّرنا مناويله بالأقيسة المنطقيّة وعليه اعتبرنا مقاربته للحجاج مقاربة منطقيّة.

5 ـ صولة عبد الله : تقديم لمصنّف الحجاج والبلاغة الجديدة ضمن كتاب أهمّ نظريات الحجاج، إشراف حمادي صمود، ص 299, منشورات كلّية الآداب منّوبة، 1999, تونس.

بالغاية والهدف لا بالفنّ والتقنية. فبيرلمان وصاحبه لم يعرفا حسب هذا القول الحجاج في حدّ ذاته إنّما عرّفاه حسب غايته والهدف منه وما يجعلنا نسم مقاربتهما بكونها مقاربة بلاغية هو تواشج تعريف البلاغة والحجاج عندهما في مستوى الهدف والغائية أليست من غايات البلاغة ضمان إذعان الجمهور وتسليمه ونشدان دفعه إلى ما يطلبه المتكلّم من عمل المطلوب منه.

وأمّا تولين فإنّ تعريفه للحجاج كان بشكل مغايرٍ تمامًا فقد اعتبر الحجاج بمثابة "المسار الذي يسلكه الباث لإقناع المتقبّل بنتيجة ما "بل إنّ وظيفة الحجّة عنده إنّما تكمن في الإقناع فقط وما سوى الإقناع فيعدّ وظائف هامشيّة ثانويّة Secondaires et parasitaires والمفيد من تعريف تولين أنّه تفطّن إلى أنّه ثمّة استراتيجيّة في صوغ الحجّة وعن هذه الاستراتيجيّة نتجت مجموعة من المناويل[6] ينبغي للمُجَاجّ توخّيها لإيصال حجّته مقنعةً ولعلّ هذه المناويل وتراكمها وتراتبيتها هو ما سوّغ لنا اعتبار مقاربة تولين للحجاج مقاربة منطقيّة وذلك، أيضًا، بناء على عمليّة الانتقال من المعطى إلى النتيجة. التي تذكّرنا في القياس بالمقدّمات والنتائج. ينضاف إلى هذا، الدليل الأولى، غياب مفهوم الجمهور وهو مكوّن أساسي من مكوّنات المعادلة الحجاجية. وعليه قال صولة في

6 - Toulmine (S): Les usages de l'argumentation: op.cit., p. 14 - p15.

أطروحته معلّقًا على "تولمين ومناويله"[7] والحقّ أنّنا غير مطمئنّين إلى نظريّة تولمين الحجاجية هذه اطمئنانا كاملاً لأسباب أهمّها أنّ أركان تولمين الأساسية الثلاثة أي (م.ن.ض) يُذكّرنا عددها ونهج الاستدلال المتوخّى فيها بنهج الاستدلال الأرسطي في بناء الأقيسة المنطقيّة... وإنّما هو أقرب إلى صناعة البرهان في المنطق حيث يقصد بالبرهان إثبات الحقّ لا لإقناع الغير به في العادة وإنّما لإقناع المرء نفسه" [8].

وأمّا المقاربة الثالثة للحجاج فهي المقاربة اللسانية أو التقنية وما يشرع لنا نعتها بكونها تقنية هو" موشلار وريبول" في معجمهما "المعجم الموسوعي للتداوليّة" إذ في هذا المصنّف فرّع المؤلّفان تعريفات الحجاج وأنواعه إلى ضربين فاعتبراه على ضربين : المفهوم العام أو العادي للحجاج ordinaire ويلخّصان هذه التعريفات قائلين "إنّ الحجاج في معناه العام هو مجموعة الخطط الخطابية المستعملة من المخاطب لإقناع جمهورهِ"[9]. والمفهوم التقني للحجاج ويعود هذا التعريف إلى ديكرو

7 - خضعت مناويل تولمين لترقى من المنوال البسيط ذي العناصر الثلاثة (المعطى donné والضمان garantie والنتيجة conclusion) إلى المنوال المعقّد أو المركّب وفيه أضاف تولمين ثلاثة عناصر متمّمة للمنوال في درجته الصفر وهذهِ العناصر المزيدة هي (شروط الإبرام أو النقض ويرمز إليها بـ.R والموجّه ويرمز إليها بـ.Q والأساس ويرمز إليه بـF).

8 – صولة عبد الله : الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، منشورات كلّية الآداب منّوبة، ص 29-30, 2001 , تونس.

9 - Moeschler (J) et Reboul (Anne): Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, (éd) du seuil, 1994, p 88

وأنسكومبر في مصنّفهما المذكور آنفًا. وعلى هذه القراءة التي قام بها موشلار وريبول لتعريفات الحجاج أسمينا مقاربة ديكرو وأنسكومبر اللسانيّة مقاربة تقنيّة وينضاف إلى هذا الشاهد الخارجي أي ما قاله موشلار وريبول، ما عرّف به ديكرو وأنسكومبر الحجاج إذ يقولان "إنّ المتكلّم إذ يحاجُّ إنّما يقدّم قولاً أوّلاً ق1 أو مجموعة من الأقوال تقود إلى الإذعان والتسليم بقول آخر ق2 أو مجموعة من الأقوال الأخرى"[10] ويمثّل ق1 أو مجموعة الأقوال الأولى حجّة منها يقع الانطلاق في الحدث الحجاجي في حين أنّ ق2 هي النتيجة التي يروم الباث تسليم متقبّله بها. ولو اقترضنا مصطلحات تولمين وبيرلمان في مصنّفاتهم لقلنا إنّ "ق1" يوافقه قضايا الانطلاق propositions du départ أو المعطى le donnée في حين أنّ "ق2" يوافقه النتيجة عامّة. وهي عادة ما تكون ضمنيّةً بل إنّ ضمنيتها تعدّ معيارًا للحكم على مدة نجاعة الحجاج وطرافته في حين أنّ "ق1" لا تكون إلاّ صريحة explicite والمركزي بل المفيد في تعريف الباحثين للحجاج هو ذلك الانتقال[11] من "ق1" إلى "ق2" أي من المعطى إلى النتيجة بعبارة تولمين ومن قضايا الانطلاق إلى الحقيقة بعبارة بيرلمان.

---

10 - Ducrot (O) et Anscombre (J.C): L'argumentation dans la langue, éd . Mardaga, 1997, p 8.

11 – في الفصل الثاني من الكتاب يعرّف الباحثان الحجاج قائلين : "إنّ مفهومنا للحجاج... لا يكون إلاّ بتوجيه المتقبّل نحو نوع معيّن من النتائج" (الحجاج في اللّغة، ص 30).

فهذا الانتقال من "ق1" إلى "ق2" هو بؤرة التعريف التقني للحجاج وهو ما عبّر عنه الباحثان بفعل التوجيه L'orientation فما تحدّثا عن الحجاج إلاّ وكان حدث التوجيه من ق1 إلى ق2 هو آلية التعريف ويحسن بنا التذكير بأنّ التوجيه كان مع الباحثين في معناه الوضعي الأوّل ولم يكن ذا طاقة اصطلاحيّة كثيفة، إذ التوجيه الذي يقصدانه هو ذلك الانزياح L'écart أو ذلك الانتقال[12] Le passage ولنقل تلك الحركة mouvements بين وضعيتين خطابيتين مختلفتين. الوضعية الأولى مصرّح بها معلومة ووضعية ثانية ضمنية. كما تجدر الإشارة إلى أنّ التوجيه الذي صاغه الباحثان تجريدًا ليس هو بالمعنى الذي تحدّث عنه بيرلمان وتيتيكاه في الموجّهات التعبيريّة Les modalités d'expression من هنا نلاحظ كيف أنّ التوجيه كان مع ديكرو بمعناه العام لا يغاله في التجريد في حين أنّه كان مع بيرلمان وتيتيكاه بمعناه الاصطلاحي اللساني رغم ما بينهما من تشابه إذ يمكن للموجّهات التعبيريّة أن تحقّق توجيه المعطى إلى النتيجة مباشرة لأنّها بمثابة العوامل الحجاجية opérateurs argumentatifs التي تضمن للملفوظ سلامته من اللحن الحجاجي. ولأنّ عمليّة التوجيه هذه لا تتحقّق إلاّ عبر صرافم لغويّة هي بمثابة الأوتاد تيسّر عمليّة إذعان المتقبّل وتسليمه. بل إنّ العامليّة الحجاجية تتجاوز

12 - Coran (Jean): Les régulations du discours psycholinguistique et pratique du langague, P.U.F. Paris 1983, 117.

التحديد الذي صاغه الباحثان في ضروب خاصّة من الصرافم إلى البنية والتركيب في الملفوظ أليست اللّغة في عرف ديكرو وأنسكومبر حجاجًا محضًا بجميع مستوياتها. وعلى هذا الأساس نحاول البحث كيف تجلّت الحجاجية في سورة الإخلاص.

قبل الخوض في الجانب الإجرائي من المقاربة نودّ التنبيه إلى أنّ اختيار موضوع الاختبار أي السورة القرآنيّة ليس له مبرّرات سوى قصرها ونجاعة تطبيق النظريّة وسرعتها. والبيّن في هذا الملفوظ ـ سورة الإخلاص ـ هو حجاجية بنيته الكلّية. فقد بنيت هذهِ السورة بناءً رياضيّا ييسّر للمتقبّل فهم مقاصد الباث منها. وعليه تمثيلا لبنائها العام الذي اعتبرناه حجاجيا يمكن أن نعيد تشكيلها في الأشكال التالية حسب تفكيك décomposition كامل السورة إلى وحدات حجاجية دنيا.

1/ الرسم الأوّل :

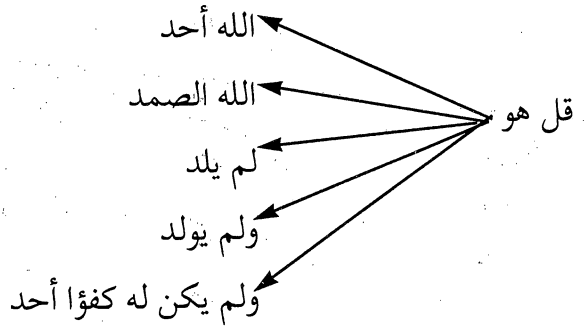

2/ الرسم الثاني :

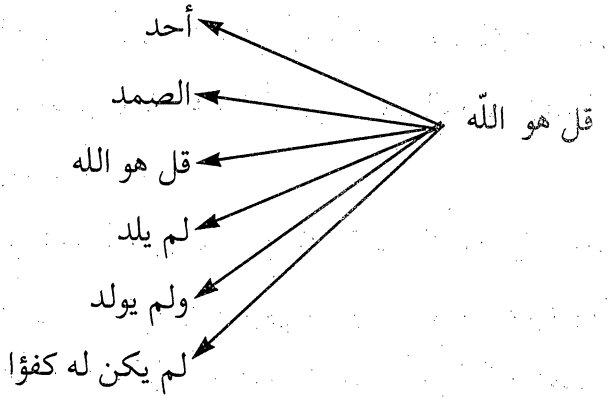

3/ الرسم الثالث :

وتعتمد فيه آلية التجميع الرياضيّة .Factorisation حيث نجد العامل المشترك facteur commun المتمثّل في "قل هو" في الرسم الأوّل. "وقل هو الله" في الرسم الثاني. في حين أنّ بقية الملافيظ هي بمثابة Les monômes ويمكن اختزال الرسم الثالث كالآتي :

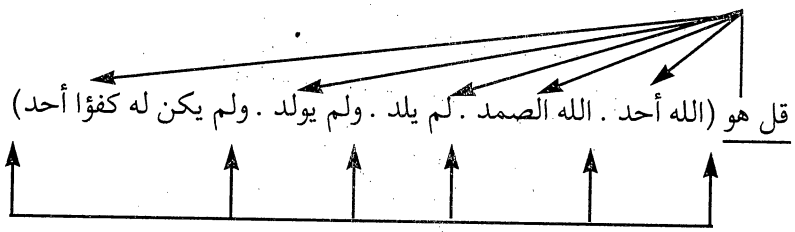

إنّ الإشكال الثلاثة أعلاهُ هي ما خوّل لنا اعتبار البنية العامّة للسورة بنيةً حجاجية، وذلك ظاهر في العلاقة بين الجزء الأوّل من الرسم أو ما اصطلحنا عليه بالعامل المشترك (قل هو/ قل هو الله) وما يتفرّع عن هذا العامل وما يتعلّق به من حجج دنيا من قبيل (الله أحد، الله الصمد....) فالقول الأوّل هو بمثابة المقدّمة العليا أو الحجة العليا L'argument super donnée في حين أنّ بقيّة الملفوظ هو بمثابة التفريعات والتشقيقات لها تفسّرها وتنشرها وعليه فلا قيمة للملفوظ الأوّل إلاّ بما يليه. وذلك لأنّ العلاقة التي تجمع الملفوظين هي علاقة العام بالخاص. وكثيرًا ما كان الانتقال من العام إلى الخاصّ آلية حجاجية ناجعة لأنّ الحركة من العام إلى الخاص هي بمثابة التبرير والتقرير لمّا أجمل في أوّل الملفوظ وتقرير في ما يليه ويمكن للرسم التالي بيان الأمر

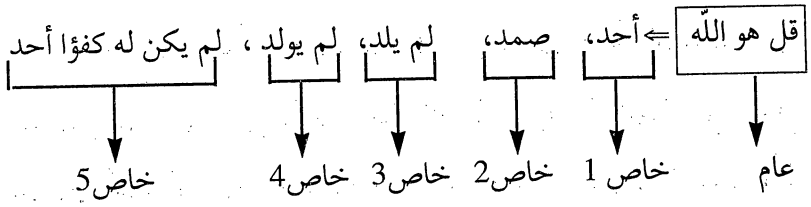

إنّ البنية الحجاجية التي زعمنا أنّ سورة الإخلاص قائمة عليها هي في اعتبارنا أوّل ملمح من ملامح تحقيق اللّغة لوظيفتها الحجاجية [13] التي

13 ـ ما تحدّث الباحثان ـ ديكرو وأنسكومبر ـ عن الحجاج في حَرَم وظائف اللّغة في الدرس اللساني إلاّ وقدّما الوظيفة الحجاجية على الوظيفة الإبلاغيّة بل إنّهما يعتبران الوظيفة الإبلاغيّة مشتقّة dérivée من الوظيفة الحجاجية.

يرى ديكرو وأنسكومبر أنّها أسبق من الوظيفة الإبلاغيّة ولعلّ نصّ السورة يؤكّد نظريتهما. إذ أنّ المتقبّل يقع في صدمة حجاجية البناء مباشرة وذلك عند توجيهه للمفهوم مباشرة أليست غايات الحجاج إذعان المتقبّل لمفهوم الملفوظ ومقصده. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار عملية التوجيه الحجاجي L'orientation-argumentatif لا تحقّقها الصرافم الحجاجية [14] باعتبارها عناصر لسانية تيسّر عمليّة الإذعان بالمفهوم عبر رسم المسار التأويلي السليم الذي ينبغي للمتقبّل توخّيه في تقبّل الملفوظ بل إنّ العامليّة الحجاجية، حسب هذا نموذج، تفيض على مقولة الصرفم وما شاكله من وحدات معجميّة إلى البنية والتركيب أليست، كذلك، الوظيفة الحجاجية والحجاج عامّة حسب المقاربة اللسانية يفضحه الشكل المجرّد للّغة لأنّه منغرس فيها كامن في ثناياها كمون النار في الحجر.

وبعد! فكيف تجلّت الحجاجية في الوحدات الدنيا منفردة. أي في الملافيظ الصغرى التي فكّكنا نصّ الملفوظ للموصول إليها وهي، للتذكير ضربان، أمّا الأوّل فهو ما اصطلحنا عليه بالعامل المشترك المتمثّل نصّيًا في "قل هو الله" أو "قل هو" وأمّا الضرب الثاني فيتمثّل في كلّ ما تبقّى من استرسالات enchaînements تواصل الملفوظ الأوّل.

14 - Anscombre (J.C): Dynamique du sens et scolarité, colloque, de Cerisy, 1987, p . 134.

قد يبدو للغرّ العجل أنّه ليس من الوجاهة أن نطرح السؤال التالي: كيف تلوح الحجاجية في ملفوظ من قبيل (قل هو) أو (قل هو الله) وأنّه من المشروع أن لا نعتبر هذا الملفوظ حجاجيًا، لكنّ الآمر غير ذلك تمامًا ولعلّ المقاربة التالية ستحاول الكشف عن حجاجية هذا الملفوظ. وننطلق في هذه البرهنة من مسلّمة قياسية قوامها أنّ الإيقاع مثلا يوجد في الكون قبل أن يوجد في محراب اللّغة وكذا الشأن في الحجاج فهو موجود في الكون حركاته وسكاناته قبل أن يوجد في اللّغة أصواتا وتراكيب. وعليه فإنّ اللّغة بجميع مستوياتها قائمة على الحجاج تراكيب وجملا ونصوصًا. وقد لا ندّعي إذا قلنا حتّى في مستوى الكلمة نشمّ رائحة الحجاج من خلال خصائصها الاقتضائية والتقويميّة[15] ليس في الملفوظ "قل هو الله" من دليل على حجاجيته أقوى من صيغة الفعل أي الآمر والفعل في حدّ ذاته [قال] الذي من معينماتِه الضّمنيّة [16] [الردّ على الخصم، التوصيل، الإبلاغ....] فصيغة الآمر من الإنشاء الطلبي والحجاج في صلبه طلبٌ

15 ـ راجع أطروحة الأستاذ عبد الله صولة حيث عقد بابًا لخصائص الكلمة من خلال المقاربة الحجاجية، وملخّص رأيه أنّ للكلمة طاقة وشحنة حجاجية بها تساهم في حجاجية الملفوظ بأكمله.

16 ـ اعتمدنا في هذا التأويل قراءة المفسّرين لأسباب النزول إذ يقول ابن كثير مثلا: "عن أبيّ بن كعب أنّ المشركين قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يا محمّد أنسب لنا ربّك فأنزل الله "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد" (ابن كثير الحافظ). تفسير القرآن العظيم، ت. د، محمد إبراهيم البنا وآخرون، مج8, ص 538, ط. دار الشعب، د.ت.

صريح أو ضمني بتسليم المتقبّل. ولعلّ حيثيات القول أو وضعيات التلفّظ كما يسمّيها التداوليون اليوم تساعدنا على إدراك كنه الملفوظ الحجاجي فالآية نزلت آمرةً الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالردّ على المشركين والنصارى واليهود وكلّ منهما كان قد نسب ربّه فقال النصارى بنسبة عيسى وقال غيرهم بنسبه عزيز... إلخ فهي حينئذ ردّ في حوارية dialogisme متعدّدة الأصوات polyphonique. من هنا نفهم قول الشيخ ابن عاشور في تفسيرها إذ يقول "ولذلك الآمر في هذه السورة فائدة أخرى وهي أنّها نزلت على سبب قول المشركين : أنسب لنا ربّك، فكانت جوابًا على سؤالهم" [17] الحوارية وهي من مقوّمات الحجاج الضمنيّة ونقصد بذلك أنّها من قوادحه فلا حوارية دونما حجاج، هي التي سوّغت لنا بدءً اعتبار الملفوظ المدروس ذا طاقة حجاجية كثيفة وينضاف إليها صيغة الآمر التي كنّا أشرنا إليها آنفًا بايتسار. فالآمر كما هو في عرف أهل المعاني من الإنشاء الطلبي يستدعي مطلوبًا يقع في ثلاثة أبعاد ويُحقّق بها المتكلّم المعاني الثواني لإنشاء الآمر. يقول ميلاد في أطروحته[18] "ويتوزّع الآمر استنادًا إلى المستوى الأوّل إلى :

17 – ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، ط. دار سحنون، مج. 15, ج30, ص 612.

18 – ميلاد (خالد) : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : دراسة نحوية تداولية، نشر مشترك (جامعة منّوبة والمؤسّسة العربية للتوزيع)، تونس، 2001, ص. 439.

1ـ أمر إذا خاطبت من هو دونك وفي ذلك اتّفاق بين النحاة.

2 ـ طلب أو دعاء أو مسألة إذا خاطبت من أنت دونه.

3 ـ التماس إذا خاطبت من يساويك... وهو معنى لم يذكره جلّ النحاة"[1].

والجليّ من هذا التقسيم الثلاثي أنّ الأمر في الملفوظ "قل هو الله" يقع في الخانة الأولى أي في "أمر إذا خاطبت من هو دونك" لأنّ طرفي الخطاب هما الباث من جهة وهو الله والمتقبّل من جهة ثانية وهو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهما على اختلاف في الطبيعة وفي المتصوّر، فالباث من الغيبيات والمتقبّل من المشاهدات وهذا الاختلاف هو المؤسّس لعلاقة السلميّة بينهما فاقتضت هذه العلاقة أن يكون الخطاب أمرًا صرفًا لا هو بالالتماس وماهو بالدعاء أو المسألة. والمحصّل من كلّ هذا أنّ الملفوظ المدروس يشي بحجاجية خاصّة نهض بها الفعل وجهته الزمانية علاوةً على قيمته المعجميّة وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أنّ العاملية الحجاجية التي تحقّق بها توجيه الملفوظ نحو النتيجة قد نهضت بها صيغة الفعل (الأمر) ومن هنا يقف اعتبارنا على أنّ العمل الحجاجي والعوامل الحجاجية تفيض على مقولة الصرفم أو العنصر اللساني الظاهر في المستوى النسقي الكتابي لتكون كامنة في التركيب والصيغة.

ينضاف إلى حجاجيّة هذا الملفوظ في نواته (قل) ما تعلّق به من فضلة ونقصد بذلك قوله [هو الله / أحد / صمد / لم يلد....] والحقيقة أنّ ضمير الفصل أو الشأن أو القصّة قد يكون أكبر دليل على حجاجية هذا

الملفوظ. فهو بمثابة الوتد والعماد cheville ouvrière في الملفوظ بأكمله لأنّه بمثابة نقطة الالتقاء المشتركة بين الملافيظ المتناسلة منه وعنه فالاسترسال continuum الحاصل في بقيّة الملفوظ إنّما مصدره هذه "الهو" ولأجل هذا شرّق المفسّرون وغربوا في سبيل فهم نجاعة ضمير الفصل في الآية [19]. الذي نرى أنّ صلب عمليّة التوجيه الحجاجي التي نهض بها الضمير تكمن في مقولة القصر التي حصر بها المفهوم وغيابها عن الملفوظ يضعف كثيرًا من حجاجيتها. فهي قطب الحدث التلفّظي بل هي معينه لذلك قال القرطبي في تفسيره "ففي "هو" دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب فإذا سقط بطل معنى الآية وصحّ الافتراء على الله" [20] ضمير الفصل هنا يصدق عليها فهم "ما ير"Meyer للشارات الحجاجية إذ يقول ناقلا ذلك عن ديكرو "يوجد في مستوى المصرّح به مؤشّرات حجاجية indicateurs argumentatifs نسمّيها ثوابت constantes أو متغيّرات حجاجية وهي غير الثوابت المنطقيّة. لها وظيفة

---

19 ـ انظر مثلا تفسير الشيخ محمد متولّي الشعراوي حيث له مقاربة للضمير تذكّرنا بنفس صوفي إذ يقول ("قل هو" تقول هو من دون أن يكون هناك مرجع... لا نعرف ماهو مدلولها من دون مرجع فكأنّ إذا أطلقت هو لها إلاّ مرجع واحد... هو الله... فإنّك عندما تقول **"هو" وحدها يبقى يجب** أن تنصرف إلى موجود آخر مع الله... ومعنى هذا أنّه أعرف المعارف ولذلك **قال أعرف المعارف الضمير... إذن** فكلمة هو ضمير غيب دلّ على أنّ الحقّ باطن في كونه وما ظهر **من كونه في أسبابه هو من أثره فهو ظاهر** بما خلق من أسباب وهو باطن بما له من ذات) (الشعراوي **محمد متولي : المنتخب من تفسير القرآن** الكريم، ط. دار العودة، ج3, ص 175-176, 1981.

20 ـ القرطبي (أبو عبد الله) : الجامع لأحكام القرآن، ط.2, **دار الكاتب العربي، ج20, ص 246,** القاهرة، 1967.

توطيد المعنى الحاف والمعنى الاستلزامي معطية للملفوظ قوة تؤهله ليأخذ مكانًا في السلم الحجاجي"[21]. ودليلنا على ذلك أنّه إذا سحبنا هذا العامل من الملفوظ و جردناه منه فقد الملفوظ قيمته الحجاجية وأصبحنا بإزاء الوظيفة الإبلاغية فحسب أو بلغة المناطقة فإنّ في سحب العامل ننتقل من الوظيفة fonction إلى القضية proposition بما أنّ الفرق بين الوظيفة والقضية إنّما هو مدى توفّرها على العامل المنطقي [22].

ويؤكّد قولنا هذا هو تناول الزمخشري لهذه الآية حيث عالج الآية بإخراج مفهومها le sous entendu إذ يقول "هو ضمير الشأن والله أحد هو الشأن كقولك هو زيد منطلق كأنّه قيل الشأن هذا وهو أنّ الله واحد لا ثاني له... فقوله "هو الله" إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها وفي طيّ ذلك وصفه بأنّه قادر عالم لأنّ الخلق يستدعي القدرة والعلم"[23] وما يعنينا من شاهد الزمخشري هذا هو تفطّنه للمفهوم، كما

---

21 - Meyer (M): Logique, langage et argumentation, (éd), Machette, 1983, p 117.

22 ـ لمزيد التعمّق في المسألة ينصح بالعودة إلى مصنّف ما ير حيث أشار فيه **إلى قيمة العامل في الانتقال** من القضية إلى الوظيفة حسب منطق هوسرل (ص 32-33 م.ن).

23 - الزمخشري (أبو القاسم) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل **وعيون الأقاويل في وجوه** التأويل، تصحيح، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلميّة، ج4, **ط1, ص 812-813, لبنان,** 1995.

أشرنا آنفًا، من الآية وعليه فإنّه قال "إشارة لهم..." والمفهوم كماهو معلوم ينضوي ضمن الضمني من أقسام المعاني وتبدو حجاجيته في كونه أقوى صمودًا من المقتضى أمام المتقبّل. فهو أكثر استدراجا لعواطف المتقبّل ليذعن له ويسلّم به وهو الإقرار بوجود ذات الله ووحدانيته وصمدنيته.

والملاحظ أنّه لئن وقف الزمخشري المعتزلي على ضمير الشأن ومتعلّقه المباشر أي "الله" فإنّ ابن عاشور قد نظر إلى المسألة من خلال الغوص في وظيفة الضمير في كلّ الملفوظ ونلمح من خلال تفسيره نَفَسًا حجاجيًا خطيرًا إذ يقول "وضمير "هو" ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده وإذا سمعه الذين سألوا تطلّعوا إلى ما بعده"[24] فنجاعة الضمير كامنة في أنّ عمله الحجاجي ساري في كامل الملفوظ لا على قضية بعينها. فهو باسط إشعاعه على مدى كامل النصّ وليس على حجّة واحدة منه فهو متسلّط على النصّ في كلّيته لا على جزء منه وهذا برهان على أنّ عملية التسلسل الحجاجي enchaînement argumentative والاسترسال الخطابي كان منوطًا بعهدة الضمير وهذا تقريبا ما يؤكّده ديكرو وأنسكومبر في كتابهما الحجاج في اللّغة قائلين "إنّ التسلسل الحجاجي الممكن **في الخطاب إنّما يكون في**

24 – ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور سابقا، 612، ج30، مج 15.

البنية اللّغويّة لا المضامين" [25] فضمير الشأن في الملفوظ قد فرض طاقة وشحنة حجاجية سارية في النصّ بأكمله لا بمرجعه وقيمته المعجمية فحسب بل بما اقتضاه وجوده في الملفوظ في خلق علائق تركيبيّة بين الوحدات المعجميّة للملفوظ. بهذا نكون قد خلصنا إلى ما اقتضاه الضمير من متعلّقات أو ما اصطلحنا عليه في بداية البحث بالعناصر المتعلّقة بالعامل المشترك وهي [الله أحد، الله الصمد، لم يلد، لم يولد، لم يكن له كفؤا أحد] .

يحسن بنا في هذا المقام من المقاربة أن نذكّر بمسألية تؤكّد حجاجية الملفوظ لكن من زاوية نظر أخرى. من جهة وتيسّر لنا العمل الإجرائي من جهة ثانية. وهي قضية النجاعة الحجاجية للجملة الاسمية أو بصيغة أخرى، أي ضروب الجمل أنجع لتحقيق الوظيفة الحجاجية من اللّغة ؟ والبيّن أنّ بقيّة الملفوظ احتوى على ثلاثة جمل اسميّة تتوسّطهم جملتان فعليتان. وهذه الهيمنة للجملة الاسمية فيما نرى ليست مجانية فلعلّها عائدة إلى الخصائص التركيبيّة والدلاليّة للجملة الاسميّة نظرا لكونها على حدّ عبارة عبد الله صولة "تنهض من الناحية الدلالية والحجاجية بوظيفة التعليل والإقناع" [26].

---

25 - Ducrot (O) et Anscombre (J.C): L'argumentation dans la langue, op / cit p 9.

26 ـ صولة (عبد الله) : الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، منشورات كلّية الآداب منّوبة، 2001, ص 502, تونس.

فالجملة الاسميّة حينئذ أقوى نجاعة في تأدية حجاجيّة الملفوظ من الجملة الفعلية وذلك لأنّ لها "قيمة حجاجية، حجّية، مرجعيّة، نستعملها في الخطاب للتأثير والإقناع لا لإبلاغ لأنّها خارج حدود الزمان والإفراد والظروف... لأجل ذلك تُستعمل في الصيغ الحكمية والأمثال" [27] علاوةً على بنيتها المجرّدة ذات المدى التناظري بين المسند والمسند إليه فهي عبارة على موازنة بين عنصري الإسناد (المبتدأ والخبر) وهذه الموازنة التي "تحصل بين المسند والمسند إليه تبرز التماثل التام أو الجزئي بين هذا وذاك وهذا ما يؤهّلها للتعبير عن الحقائق العامّة والمبادئ القارّة" [28] ولو طبّقنا هذا التعريف أو هذه المقاربة على الملفوظ المدروس لتحصّلنا على المعادلات التالية :

الله أحدٌ ↔ الله = أحدٌ

الله الصمد ↔ الله = الصمد

لم يكن له كفؤًا أحد ↔ هو = الله = لم يكن له كفؤًا أحد

إنّ تمحّض الجملة الاسميّة للتعبير عن الحقائق العامّة والمبادئ القارّة واستعمالها للتأثير والإقناع. يجعلها بذلك متمحضّة صراحة للحجاج أليس الحجاج إقناعًا وتأثيرًا ومحاولة إيهام بامتلاك الحقائق العامّة والمبادئ القارّة وما يؤكّد هذا أيضًا هو ذلك التوازي بين المسند والمسند

---

27 - Benveniste (Emile): Eléments de linguistique dans la langue, op. cit . p9.

28 - المهيري (عبد القادر) : مساهمة في تحديد الجملة الاسمية، حوليات الجامعة التونسي ،عدد 5، 1968, ص 8.

إليه ما دام هذا يساوي ذاك وذاك يساوي هذا فلا تناقض ومن أوليات الحجاج عدم الوقوع في التناقض.

يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره "والمعنى أنّ الله منفرد بالإلهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك وللتثليث الذي أحدثه النصارى الملكانية وللثانوية عند المجوس وللعدد الذي لا يحصى عند البراهمة... فقوله "الله أحد" نظير قوله في الآية الأخرى "إنّما الله إله واحد... فأفاد وصف أحد أنّه منزّه عن الجنس والفصل والمادّة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما ينافي الوحدة الكاملة"[29] والمحصّل من كلام ابن عاشور أنّ المعاني الحجاجية التي أراد الباث إقناع مخاطبيه بها قد صبّت في قوالب هي الجملة الاسمية والوحدات الاسمية بصفة عامّة. وذلك "إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك" وهذا ملمح بسيط وأولى في الحجاج قوامه الردّ على الخصم، أمّا الملمح الثاني فهو أكثر تعقيدًا وهو محاولة ضمان إذعان المتقبّل وتسليمه بالمبادئ العامّة والأحكام القارّة. والحكم القار والمبدأ العام الذي يروم هذا الملفوظ إيصاله هو الأحادية كصفة لذات الله لذلك قال ابن عاشور "فأفاد وصف "أحد" أنّه منزّه عن الجنس والفصل والمادّة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما ينافي الوحدة الكاملة".

29 – ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور سابقًا، ص 615-616.

وينضاف إلى عاملية القالب العام[30] للملفوظ، أي حلول القضية في الجملة الاسمية، الوحدات المعجمية التي كانت أخبارًا عن اسم الجلالة * وهما مفردتا [أحد، صمد] فهاتان المفردتان لهما شحنة وطاقة حجاجية بما احتوتاه من معينمات اقتضاية تؤهّلهما للتأثير في المتقبّل ودليلنا على ذلك مثلا ما قاله الصابوني في تفسيره إذ يعتبر أنّ في قوله "قل هو الله أحد" تجريدًا إذ يقول "فإنّ قوله "قل هو الله أحد" يقتضي نفي الكفء والولد"[31] والطريف في تخريج الصابوني أنّه تفطّن إلى حقيقة مفهوم الأحادية وذلك عند قوله "نفي الكفء والولد فما من "أَحَدٍ" إلاّ وليس له كفء ولا ولد ولهذا لا ينطبق هذا الوصف إلاّ على الله وعلى الله فقط وإذا شاركه في هذه الصفة غيرٌ فَقَدْنَا من الجانب اللساني حجاجية المفردة ومداها الإقناعي، وفقدنا في ما خارج اللّغة وجود الله بل إنّ وجدانه وتوحيدهُ رهين هذه الصفة وهذه الصفة فقط لا سيما وأنّ الصفة لا تنقل إلى الاسم إلاّ إذا بلغ الاسم مبلغًا من الكمال

30 – ننطلق في إصدار هذا الحكم من أنّ العاملية الحجاجية تتجاوز العناصر اللسانية كالروابط والعوامل الحجاجيين الظاهرين في الملفوظ كتابةً ورسمًا إلى العاملية العامّة للّغة التي منها التركيب والإيقاع بل والمجاز أيضًا... إلخ.

* – لم نقف على مفردة "الله" وقيمتها الحجاجية ونحيل إلى أطروحة عبد الله صولة فقد درسها دراسة ضافية في قسم الحجاجية في المعجم وقد عالج الباحث الكلمة من عديد الجوانب منذ أصل نشأتها.

31 – الصابوني (محمد علي) : صفوة التفاسير، دار الرشاد، جIII، ص 622، بيروت 1988.

في تلك الصفة، وما قيل في صفة "أحد" يصدق تمامًا على صفة "صمد". واسترعى انتباهنا تعليق ابن كثير على مفردة الصمد وطريقة استخراج الغاية الحجاجية منها[32] إذ يقول "الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنّه ليس شيء يولد إلاّ سيموت وليس شيء يموت إلاّ سيورث وإنّ الله - جلّ جلاله - لا يموت ولا يورث"[33] فالعلاقة الجملية بين الله وأحد/صمد قد استأثرت بنصيب كبير في عملية التوجيه الحجاجي يعضدها في ذلك المعنى المعجمي فالعلاقة بين الموضوع والمحمول علاقة قصرية فالأحادية والصمدانية حكرًا وقصرًا على الله وعلى الله فقط لذلك قال الشيخ ابن عاشور "وصيغة "الله الصمد" صيغة قصر بسبب تعريف المسند فتفيد قصر صفة الصمدية على الله تعالى. وهو قصر قلب لإبطال ما تعوّده أهل الشرك في الجاهلية من دعائهم أصنامهم"[34]. وعليه يمكن اعتبار القصر كمقولة بلاغية تحقّقها بعض البنى التركيبيّة التي أحصاها السيوطي والسكاكي وغيرهم،

---

32 – يمكن العودة هنا إلى المعجم الموسوعي للتداولية لموشلار وريبول عند حديثهما عن المنوال السنّي modèles codiques والمنوال الاستدلالي modèle inférentiel لإدراك المنوال الذي توخّاه ابن كثير في استخراج معنى الآية.

33 – ابن كثير (الحافظ) : تفسير القرآن الكريم، مذكور، ص 538.

34 – ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور، ص 618.

فالسيوطي مثلا قد حصرها في أربعة عشر وجها[35]. ذات عاملية حجاجية قويّة كيف لا وبها يقع قصر وحصر المفهوم وتوجيه المتقبّل إليه دون عناء أو كدّ روية. وهذا من شأنه أن ييسّر على المتقبّل اتّباع المسار الحجاجي للوصول للنتيجة فيذعن لها دون مشقّة. لذلك قال ابن عاشور "لإبطال ما تعوّده أهل الشرك في الجاهلية".

ينضاف إلى القصر[36] ما ينجرّ عنه من تخصيص عبر التعريف والتخصيص في اعتبارنا صلب عمليّة التوجيه الحجاجي إذ يروم الباث عبر التخصيص وضع المتقبّل في مواجهة مباشرة في زاوية حادّة من المفاهيم التي لا مهرب له منها سوى باللجوء إليها. لذلك قال الزمخشري "وقوله الصمد وصف بأنّه ليس إلاّ محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلاّ محتاجًا إليه فهو غني وفي كونه غنيًا مع كونه عالمًا أنّه عدل غير فاعل للقبائح"[37] فبالتعريف والقصر وصل الزمخشري إلى حقيقة المعنى من الآية وهي أنّ الله في حَاجَةِ العبادُ لَهُ وليس في حاجة إلى أحد. وهو وحده المحتاج له والمختصّ بهذه الصفة. وفي كلّ هذا محاججة لأهل

35 – السيوطي (جلال الدين) : الإتقان في علوم القرآن، ص 49-51, بيروت، د.ت، "طرق الحصر كثيرة أحدها النفي والاستثناء... الرابع عشر قلب حروف الكلمة".

36 – يقول السكاكس في المفتاح "وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان كقولك زيد شاعر لا منجم لمن يعتقده شاعرا أو منجّما" (مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، تح. نعيم زرزور، ط.1, ص 288, بيروت، 1983.

37 – الزمخشري (أبو القاسم) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل...، مذكور، 813.

الشرك والنصارى واليهود. فعلى غزارة الجمهور[38] وتعدّده واختلاف مشاربه ومسالكه حقّق القصر والتخصيص والمعنى المعجمي لـ(أحد/صمد) عاملية خاصّة قاطعة في إيصال المفهوم كانت قد صبّت في قالب يُعبّر به عن الحقائق العامّة والمبادئ القارّة وهو الجملة الاسميّة، وصفوة القول أنّ هذا القسم الأوّل من الملفوظ المتكوّن من وحدتين حجاجيتين (الله أحد / الله الصمد) على كثافة حجاجيته لا نجانب الصواب إذا قلنا إنّها على جلالة من قالها وعلى شراسة من أراد الدفاع على الذات. وعليه نريد أن نشير أنّها، مقارنة بالآية في جملتها، قد جاءت في قسم الإثبات عكس بقية الملفوظ والإثبات فيها على قسمين هما كما يبيّنهما الشكل التالي :

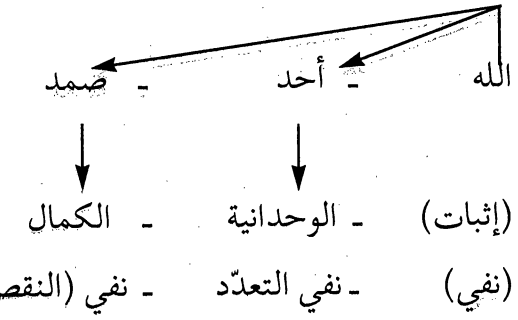

38 ـ من المعلوم أنّ الجمهور يمثّل ذرة atome واجبة غير كافية في هباءة molécule التي يتكوّن منها الحجاج وقد وقف منه الدارسون مواقف في تقسيمه وتصنيفه.

إنّ المراوحة بين إثبات المنطوق ونفي المقتضى في الملفوظ قد أيّدهُ عامل حجاجي آخر هو التكرار للمبتدأ. وهذا من شأنه أن يكسب الملفوظ إيقاعًا حجاجيًّا خاصًّا تختزله قولة "ما تكرّر تقرّر" ففي تكرار* اسم الجلالة تنبيه للمتقبّل إلى ما يجب الانتباه إليه لذلك قال البيضاوي في تفسيره "وتكرير لفظة الله للإشعار بأن من لم يتّصف به لم يستحقّ الألوهيّة وإخلاء الجملة من العاطف لأنّها كالنتيجة للأولى والدليل عليها" (39) فالتكرير حينئذٍ للتقرير والتأكيد وهو تخصيص على التخصيص وقصر على القصر وهذا ما قصدنا به كثافة العاملية الحجاجية وبالتالي وضوح المفهوم من الملفوظ.

قام الملفوظ في بنيته الكلّية على تناظر بين الإثبات والنفي ولئن بيّنا حجاجية الملفوظ المثبت فإنّا نريد الوقوف الآن على ضرب خاص من الحجاجية قدّمها لنا الملفوظ عبر عاملية النفي في قوله [لم يلد / لم يولد / لم يكن له كفؤا أحد] ولئن كان الإثبات له عمل حجاجي يشترط إطارًا تخاطبيّا خاصًّا يمثّل فيه الباث والمتقبّل المكوّن الأساسي للحدث

* – وليس الإيجاز بمحمود في كلّ موضع ولا بمختار في كلّ باب، بل لكلّ مقام مقال ولو كان الإيجاز محمودًا في كلّ الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن الكريم ولم يفعل الله ذلك ولكن أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للإيجاز. وكرّر تارة للإفهام (الجاحظ (أبو عثمان) : البيان والتبيين، ج4, ص 27).

39 – البيضاوي (ناصر الدين) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط.1, دار الكتب العلميّة، مج II، ص 631, 1988, بيروت.

التلفّظي وما الملفوظ إلاّ قيمةً مضافة، فإنّ النفي عمله الحجاجي يدخل في جهاز عرفاني معقّد نواته الصلبة هو الملفوظ بدرجاته وأصنافه ونقصد بذلك استدعائه للمغيّب ولغير المشترك فيه أي المنفى. ونودّ قبل الخوض في حجاجية بنية الملفوظ أن نقدّم له بمقدّمة برقية حول النفي باعتباره القالب الذي صبّت فيه الوحدتان الحجاجيتان.

مثّل النفي مبحثا اشتركت فيه شتّى فروع المعرفة منذ النحو القديم والبلاغة الكلاسيكيّة في إطار علم المعاني ودرسه قبل ذلك المناطقة ولهم فيه كلام كثير إلى الدراسات التداوليّة [40] بدايتها مع أوستين وسيرل. إلى ديكرو وأنسكومبر. أمّا النحاة فقد تطرّقوا إليه من وجهة نظر تركيبيّة فأحصوا حروفه وتراكيبه وأمّا أهل المعاني فعالجوه من ناحية علاقته بالإثبات كزوج له قار وأمّا التداوليون اليوم فعالجوه مثلا من جهة الأعمال اللّغويّة التي ينتجها في وضعيات تخاطبية معيّنة باعتبارها معاني ثانوية. وأمّا المناطقة فدرسوه باعتباره قوةً تؤثّر في القضية تأثيرًا مباشرًا. ولكن كيف يتمّ التوجيه الحجاجي عبر النفي إذا سلّمنا بعامليّته لا سيما وأنّ المناطقة هم من أصّلوا له هذا اللقب ضمن خانة العوامل المنطقيّة.

---

40 – يُنصح في هذا السياق بالعودة إلى دراستين قيّمتين أنجزتا في إطار شهادة الدكتورا وهما "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : دراسة نحوية تداولية"، أنجزها خالد ميلاد وصدرت سنة 2001 بتونس "وعمل النفي وخصائصه الدلالية في العربية" أنجزها شكري المبخوت. مازالت مرقونة بقاعة الأطروحات بكلّية الآداب منّوبة تحت رقم .T1755

ويعرف ابن يعيش النفي قائلا "اعلم أنّ النفي إنّما يكون على حسب الإيجاب لأنّه إكذاب له فينبغي أن يكون على وفق لفظِه لا فرق بينها إلاّ أنّ أحدهما نفي والآخر إيجاب"[41] لو عالجنا الملفوظين في ضوء هذا التعريف لظهر لنا كيف يلوح المنزع الحجاجي التي تختزله مقولة "الإكذاب والتكذيب" أليس الحجاج في حقيقته إكذابا وتكذيبا لمسلّمات المتقبّل ما دام " هو دراسة للعلاقة بين الضمني والصريح" [42] وعليه فإنّ في قوله [لم يلد / لم يولد / لم يكن له كفؤًا أحد] إكذابًا وتكذيبا لمن زعم أنّ لله نسلا منه كان وبه تواصل. ولهذا "قال ابن عباس "لم يلد" كما ولد مريم ولم يولد كما ولد عيسى وعزيز وهو ردّ على النصارى وعلى من قال عزيز ابن الله"[43] فهذا الكلام شاهد على أنّ النفي قوامه التكذيب وشاهد على أنّ الحجاج صلبه الجمهور أمّا التكذيب فعند تفنيده لصفة التوالد والانتماء المقولي لذات الله إلى الجنس المتوالد وأمّا من جهة صلة الحجاج بالجمهور فإنّ الآية قد ردّت

41 ـ ابن يعيش (موفق الدين) : شرح المفصّل، المطبعة المنيرية، ج8, ص 107, د.ت.

42 - Meyer (M): Logique, language, et argumentation, op . cit ., p112, «L'argumentation est l'étude du rapport entre l'explicité et l'implicité».

43 ـ القرطبي (أبو عبد الله) : الجامع لأحكام القرآن، ط.2, دار الكاتب العربي، ج20, ص 246, القاهرة، 1967.

على ثلاثة طوائف من الجماهير (النصارى، اليهود، الوثنية) ينضاف إلى هذه المسألة علاقة المصرّح به بالضمني في عاملية النفي وذلك "أنّ النفي يقوم على ضرب من العلاقة بين مكوّن مصرّح بنفيه ومكوّن مثبت ضمنيا"[44] ويؤكّد كلام المبخوت المنزع الذي توخّاه الطبري في تفسير هذا الملفوظ إذ يقول "وقوله لم يلد يقول ليس بفان لأنّه لا شيء يلد إلاّ وهو فانٍ بائد. "ولم يولد" وليس بمحدث لم يكن فكان لأنّ كلّ مولود فإنّما وجد بعد أن لم يكن وحدث بعد أن كان غير موجود ولكنّه تعالى ذكره قديم لم يزل ودائم لم يبد ولا يزول ولا يفنى"[45] فالتوجيه الحجاجي الذي نهض به الصرفم "لم" المتمحّض للنفي يظهر في قدح المفهوم وإخراجه من صياصيه وهو في مقولة الضمني ويكون ذلك انطلاقا من المنطوق المصرّح بنفيه وهو الإقرار بأنّ الله لم يولد ولم يلد. لا سيما وأنّ النفي يدخل ضمن الطلبيات Le directif والغرض منها حمل المخاطب بدرجات مختلفة على أداء عمل معيّن" [46] والباحث في هذين الملفوظين يروم حمل المتقبّل على أداء عمل هو التسليم بتجرّد الله من الصفات التي تسند للبشر وغيره كالتوالد، والتكاثر. لذلك قال الشيخ

---

44 – المبخوت (شكري) : عمل النفي وخصائصه الدلالية في العربية، ص 336, أطروحة دكتوراه دولة، مرقونة بكلّية الآداب منّوبة، تحت عدد .T1755

45 – الطبري (أبو جعفر) : جامع البيان، ط. دار الكتب العلميّة، ط.2, مج. 12. 744, 1997.

46 – ميلاد (خالد) : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة، مذكور، ص 506.

ابن عاشور "فحصل من مجموع جملة "لم يلد ولم يولد" إبطال أن يكون الله والدًا لمولود أو مولودًا من والدٍ بالصراحة... وبطلت العقائد المبنية على تولّد الإله مثل عقيدة راردشت... فلمّا أبطلت الجملة الأولى إلهية إله غير الله بالأصالة وأبطلت الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق أبطلت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعيّة والتولّد بطريق الكناية"[47] فالنفي حينئذ قد أدّى وظيفته الحجاجية بامتياز وذلك عندما كذّب زَعْم الجمهور القائل بتناسل الله من والدٍ واستخلافه لمولود وفي أثناء كلّ هذا صاغ تحديدًا جامعًا مانعًا[48] لذاته باعتباره لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد وحسبنا إذا صحّ هذا الزعم، كون الملفوظ يصلح أن يكون حدًّا، أنّ وظيفته الحجاجية وظيفة المركزيّة لأنّ التعريف أو الحدّ بداية السيطرة على جهاز المتقبّل الإدراكي.

ينضاف إلى هذا العامل العام الذي بسط نفوذه متسلّطًا على بقية الملفوظ لعبة الأزمنة التي ولا شكّ أنّها ليست مجانية، ويؤكّد كلامنا هذا أنّ كثيرًا من المفسّرين لم يتعرّضوا إليها. ولا شكّ أنّ لها قيمة حجاجية

---

47 – ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور، ص 619.

48 – يقول الزجاجي "اعلم أنّ الحدّ والتعريف في عرف النحاة والفقهاء والأصوليين اسمان لمسمّى واحد وهو ما يميّز الشيء عما عداه ولا يكون كذلك إلاّ متى كان جامعًا مانعًا" والذي نرى أنّ تعريف ماهية الله قد نهضت بها سورة الإخلاص حجاجًا محضًا (الزجاجي أبو إسحاق : الإيضاح في علل النحو، تح، مازن المبارك، 1982, ص 46).

سنيّة. والذي نرى أنّ الاقتصار على الماضي جهة ومظهرًا كان ذا وظيفة تلبيس الحدث لبوس العمومية والخصوصية في آن أمّا العمومية فمن جهة كونه زمانًا عامًا يستغرق ما مضى وما يكون وما سيكون ولن يكون. وأمّا الخصوصية فتمحّضه للذات الإلهية فحسب كقولِهِ "لا تأخذه سنة ولا نوم" في المضارع المستغرق للماضي أيضا. أو كقوله "إنّك كنت بنا بصيرا" فبصرهُ يصدق على الماضي والحاضر والمستقبل وهو لم يتنازل عن هذه الصفة وكذلك فهو لم يلد ولم يولد. منذ أن كان إلى ما لا نهاية للكمالات وعليه قال أحد العارفين "كان الله ولا شيء معه وهو على ما كان عليه لازال" [49] وقد تكون صيغة الماضي الدال على استغراق ما كان وما يكون وما سيكون من قبيل ما نجده في الصيغ الحكمية والقوانين العامّة والمبادئ القارّة مثل "بلغ السيل الزباء" أو "سبق السيف العذل" فهذه الصيغ الحكمية والمثلية عادة ما تكون الأفعال فيها مصرفة في الماضي وهي صادقة في الحاضر والمستقبل دائما شريطة أن يكون الإطار التلفّظي الذي تُتداول فيه موازيًا للإطار التلفّظي الأوّل الذي فتحت عنها فالماضي في هذه البنى المتداولة دالّ على الحاضر والمستقبل وهو حسب رأينا إن دلّ في الصّيغ الحكميّة والمثليّة على الحاضر والمستقبل فإنّه يدلّ بشرط واجب هو مطابقة لحظة الإنتاج الأولى

---

49 – وقف الصوفية عند هذه الآية (لم يلد ولم يولد) فاعتبروها دليلاً قاطعًا على صفة القدم ونزهوه عن الحدوث لأنّ الحدوث في عرفانهم منقصة والله ليس حادثا بل قديمٌ محدث للموجودات ولعلّ تأويلهم هذا له صلة بقيام الملفوظ على الماضي.

وحيثيّات القول فيها للحظة ثانية هي لحظة الاستعمال وهذا ما لا نجده في القرآن فإنّ الزّمن لا قيمة له فقوله "لم يلد ولم يولد" صادقة في كلّ إطار تداوليّ بجميع حيثيّاته لذلك مثلا قال السيوطي - غير عابئ - بزمن أفعال الآية "لم يلد لانتفاء مجانسته ولم يولد لانتفاء الحدوث عنه"[50] ولعلّ عدم الاعتناء بالزمن عائد إلى شدّة الاهتمام بالمعاني ونتائجها.

قبل أن نختم إلى ضرب آخر من الوسائط اللّغويّة وهو التقديم والتأجير وهو، بدءً، مبحث اشترك في درسه أهل التركيب وأهل المعاني ولكلا الفريقين منطلقاته الخاصّة التي يطول الحديث فيها فقوله "لم يكن له كفؤًا أحد" حيث قُدم المجرور على متعلّقه، وهذا له قيمة حجاجية تكشفها عبقريّة اللّغة العربيّة ونجاعة التقديم والتأخير فيها، لغاية هي ما به عرّف بعض الباحثين التقديم والتأخير من ذلك قول الهيشري "والواقع أنّ التقديم والتأخير ظاهرة أساسية في اللّغة تمكّن من التصرّف في عناصرها بتحويلها عن ترتيبها الأصلي لمقتضيات نحوية يفرضها التركيب والأغراض البلاغية يطلبها الكاتب عن قصد"[51] والذي يهمّنا هنا قوله الأغراض البلاغية يطلبها الكاتب عن قصد. وذلك أنّه ثمّة غائية في الملفوظ المدروس يطلبها الباث وما دامت ثمّة غائبة فثمة حتما حجاجٌ وتوجيه. وعليه قال الزمخشري في قوله "لم يكن له كفؤًا أحد" تقرير

---

50 – السيوطي (جلال الدين) : تفسير الجلالين، ج1، ص 826, دار الحديث.

51 – الهيشري (الشاذلي) : القصر في سورة البقرة، حوليات الجامعة التونسية، عـ26ـدد، 1987, ص 121.

لذلك وبت للحكم فيه، فإن قلت الكلام العربي الفصيح أن يؤخّر الظرف الذي هو لغويًا غير مستقرّ ولا يقدّم... فما باله مقدّما في أفصح كلام وأعربه ؟ قلت هذا الكلام إنّما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وهذا المعنى مصبّه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهمّ شيء وأعناه وأحقّه بالتقدّم وأحراه"[52] والطريف في الأمر أنّ التقديم والتأخير هنا كان "غير عادي" لأنّه متعلّق بتقديم الفضلة وليس العمدة وهذا ما قد يتعارض مع قول الباحث الهيشري عند قوله آنفا "المقتضيات يفرضها التركيب" وأظنّه يقصد ضروبًا أخرى من التقديم والتأخير مع العمدة والفعل خاصّة كان قد حصرها السكاكي في ثلاثة أضرب[53]. فالأصل حينئذ في الفضلة متى كانت ظرفًا معمولاً لعامل مشتقٍّ أن لا تتقدّم على عاملها وهذا ما أنكره الزمخشري وهو اللّغوي المتكلّم، لكن القرآن جاء بالاستثناء في الإنجاز والاستعمال ليَسُنَّ قاعدةً في الاستعمال الجديد وهو استعمال حجاجي ودليلنا على ذلك ما قاله البيضاوي وابن عاشور في هذا الملفوظ إذ يقول البيضاوي "ولم يكن له كفؤًا أحد... وكان أصله أن

52 ـ الزمخشري (أبو القاسم) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،... مذكور، ص 813.

53 ـ يرى الشكاكي أنّ التقديم على ثلاثة أضرب هي :

1/ أن يقع بين الفعل وبين ماهو فاعل له.

2/ أن يقع بينه وغير ذلك كنحو زيدًا عرفت ودرهمًا أعطيت.

3/ أن يقع بين ما يتّصل به كنحو عرفت زيد عمرًا. (السكاكي : أبو يعقوب : المفتاح، مذكور، ص 231).

يؤخّر الظرف لأنّه صلة كفؤًا لكن لمّا كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدّم تقديمًا للأهمّ" وأمّا الشيخ ابن عاشور فإنّه يقول "وتقديم المجرور بقوله "له" على متعلّقه وهو "كفؤًا" للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحد له" (54) الملاحظ أنّ كلا المفسّرين اجتمعا على أنّ غاية هذا التقديم إنّما هو الاهتمام والأهمّية للمشار إليه وهذا لعمري صلب عمليّة التوجيه الحجاجي l'orientation argumentative حيث أنّ الباحث أراد صرف المتقبّل عن المعتقد الخاطئ وهو جعل الأنداد لله إلى مفهوم ونتيجة أكثر أهمّية لصحّتها. عبّر عنها ابن كثير بقوله "ولم يكن له كفؤًا أحد يعني لا صاحبة له" (55) فنجاعة التقديم والتأخير ظاهرة في ما يخلّفه الملفوظ من آثار ذلك الاهتمام الذي تحدّث عنه البيضاوي وابن عاشور. وهو ما كان لخّصه ابن كثير في نفي الصاحبة عن ذات الله. وهنا نلاحظ آلية أخرى من آليات استخراج المعنى من الملفوظ القرآني وهذه الآلية لها صلة بالحدث الحجاجي، وقوام هذه الآليـة هو السؤال التالي ماهي الصلة بين نفي أن يكون لله كفؤًا ونفي أن يكون لله صاحبة ؟ .

وليس ثمّة من جواب سوى أنّ الصاحبة من المقتضى المعجمي لمفردة "كفؤًا". لذلك نلاحظ أنّ تفسير ابن كثير في هذه الآية أبعد غورًا من التفاسير التي تعرّضنا إليها وليس هذا حكمًا انطباعيًّا إنّما حملنا إلى

54 ـ ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور، ص 620.

55 ـ ابن كثير (الحافظ) : تفسير القرآن الكريم، مذكور، ص 548.

ذلك هو تفطّنه للضمني وللمسكوت عنه في الآية، وعكس هذا تمامًا لا نوافق القرطبي موافقة تامّة في قوله "فقدّم خبر كان على اسمها لينساق أواخر الآي على نظم واحد"[56] وتقريبًا نفس المذهب في المقاربة تبنّاه السيوطي عندما قال إنّ في التقديم مراعاة للفاصلة* في السجع وهذا لعمري بعيد عن الغاية الحجاجية وإن كان التنغيم والجمال والإقناع ثمّة في الآ نفسه نَفَسٌ خَطَابِي rhétorique بالمعنى القديم للخطابة حيث يشترط المحسنات البديعيّة كأجراس تجلب اهتمام المتقبّل، وهذا رأي قد تبنّاه المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير عند اهتمامه بموسيقى وإيقاع أسماء الله وصفاته في القرآن[57].

صفوة القول حينئذ إنّ سورة الإخلاص نموذج جيّدا جدّا على تأدية اللّغة العربية لوظيفتها الحجاجية. وذلك في بنيتها خاصّة فالسورة كما رأينا في بنيتها المجرّدة عبارة على جملة فعليّة مركّبة في صدارتها فعل أمر.

---

56 – القرطبي (أبو عبد الله) : الجامع لأحكام القرآن، مذكور، ص 246.

* – في ما نرى أنّ القضيّة في هذا الملفوظ هي قضيّة تبئير focalisation وليست قضية إيقاع وسجع. وفيما نرى أيضًا أنّ التقديم والتخيير أحسن آلية في اللّغة للكشف عن البؤرة ولمزيد التوضيح نحيل على كتاب أحمد المتوكّل بعنوان "الوظائف التداولية في اللّغة العربيّة، ط.ة، دار الثقافة، المغرب، 1985.

57 – انظر مقال "دراسة في سورة القرآن وآيه" لريجيس بلاشير، نقله إلى العربية مختار العبيدي ضمن حوليات الجامعة التونسيّة، عـ21ـدد، 1981, ص 80–81, يقول بلاشير "وتظهر في كثير من الأحيان صيغ وتراكيب تضفي على النصّ نغما موحّدًا يؤثّر في السامع أيّما تأثير"، ص 89.

ومقول القول فيها مفعول به جاء جملة اسمية توحّد المبتدأ فيها "هو" وتعدّد الخبر [ ] [الله أحد، الله الصمد، لم يلد، لم يولد، لم يكن له كفؤًا أحد] فكان المبتدأ بمثابة المقدّمة والأخبار بمثابة النتائج. وقد رفد هذا البناء العام وحجاجيته معاني ذات شحنة حجاجية قوية من قبيل "الوحدانية، والصمدانية، الولادة، التوالد، الكفاءة" وكلّها كانت أزواجا على محوري النفي والإثبات فأثبت الله تعالى لذاته الوحدانية والكمال والأزلية والبقاء والعظمة ونفى عن ذاته التعدّد والنقص والعجز والذرّية والأنداد، وعليه كانت ثلث القرآن لأنّها وردت ردًّا على من سأل الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن نسبة الله، وما يؤيّد كلامنا هذا ما يمكن أن نسمّيه الحجاجية الميتالغويّة l'argumentativité métalinguistique وهي خانة يمكن أن نجمع فيها أسباب النزول[58] وقد تفنّن الثقات من أهل النقل في تحديدها وينضاف إلى أسباب النزول، ما قاله الرسول في هذه السورة وشهادة بعض الصحابة والتابعين فيها وحسبنا دليلا نهائيا ما

58 - يروي ابن كثير قائلا : "عن أبيّ ابن كعب أنّ المشركين قالوا للنبي "ص" يا محمد أنسب لنا ربّك فانزل الله قل هو الله أحد" (ابن كثير (الحافظ) : تفسير القرآن الكريم، مذكور، ص 538.
وفي نفس الكتاب يروى حديث الرسول "من قرّاء قل هو الله أحد، عشرات مرات بنى الله له قصرا في الجنّة... وعن أنس بن مالك عن رسول الله قال من قرّاء قل هو الله أحد خمسين مرّة غفرت له ذنوب خمسين سنة"... وكثيرة هي الأحاديث في فضلها وقيمتها التي تؤهّلها لأن تكون ذات قيمة حجاجية.

قامت عليه هذه السورة من تعدّد الأسامي فقد ذكر ابن عاشور[59] أنّ الرازي قد أحصى لها عشرين اسمًا ولعلّ كثرة الأسامي من شرف المسمّى و قيمته. وهذه الحجاجية الميتالغوية لها فرسانها من علماء التفسير بجميع فروعه ومدارسه وعلماء الأصول والفقه وعلماء الحديث وغيرهم وحسبنا الحجاجية اللّغويّة التي حاولنا الوقوف عليها.

59 – "وقد عقد الفخر في التفسير الكبير فصلا لا سماء هذه السورة فذكر لها عشرين اسما" (ابن عاشور (محمد الطاهر) : تفسير التحرير والتنوير، مذكور، 610.